قراءة موجزة في مشكلة العنف في المجتمعات الحديثة

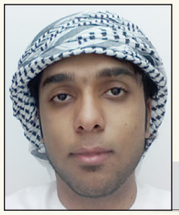

عبد الله الشحي

يتحدّث الكاتب والباحث المغربي محمد القاضي في مقالته بمجلة التسامح التي حملت عنوان»مظاهر العنف في المجتمع المعاصر» عن ظاهرة العنف وتواجدها في المجتمعات المعاصرة، ويطرح تعريفا للعنف، ويقسم العنف إلى أنواع ويناقش بعض الأسباب الدافعة إليه، ثم يحاول رد بعض الاتهامات حول كون الإسلام ديانة تدعو للعنف، بل يعمل على إثبات عكس ذلك.

يمكنني القول إنّ من المُسلّم به أن العنف لم يكف عن الارتباط بالمجتمعات البشرية لا في الماضي ولا في الحاضر، لا في زمن الحجارة والطين ولا في زمن الآلة والتقنية الحديثة. حيث مع كل التقدم في مختلف المجالات-أو ما نفترض أنه تقدم على الأقل- ظل العنف يحتل مساحة واسعة من سمات التجمعات والمجتمعات البشرية، فقد كان العنف هو الحل والخيار الأكيد والأقوى لحسم أي خلاف بين البشر أفرادًا وجماعات.

لا توجد مبالغة حسب تصوري في القول بأنّه لا يوجد مجتمع من المجتمعات البشرية كان يخلو من العنف، سواء داخل الأسرة أو على مستوى القبيلة والدولة قديمًا وحديثاً بمختلف أشكاله التي قد تتراوح بين الإيذاء نفسياً ومادياً إلى حد القتل ومن إيذاء البشر لبعضهم إلى إيذائهم الحيوانات، بيد أن بعض أشكال العنف تعتبر مقبولة داخل مجتمعات محددة، كمصارعة الثيران مثلاً، مع وجود المنظمات التي تعارض ذلك إلا أنه يمارس وبشكل علني ومنظم أيضاً!!

قد لا يكون معلومًا بالشكل الأكيد ما إذا كان العنف هو طبع الإنسان وأصله أم مجرد حالة عابرة لعلة ما؛ فالذين يمارسون العنف كثيرون بقدر الذين لا يمارسونه، هذا بالطبع إذا قصدنا بالعنف ذلك الذي يمارسه شخص أو جماعة ضد شخص أو جماعة أخرى من أجل مصلحة شخصية. هناك أيضًا التعريف العام للعنف الذي يشمل على سبيل المثال ضرب الأب لابنه تأديبًا له، فهذا عنف يقوم به الجميع وربما يكون سمة في الإنسان.

العنف عمومًا يتأثر بعوامل قد تهيجه أو تثبطه، تحدث الكاتب عن التلفزيون كأحد العوامل الأساسية في تمكين العنف داخل الأسرة، خصوصًا الأطفال فهم يتعرضون لكم هائل من مشاهد العنف والدماء، مما يترك فيهم آثارا نفسية ورغبة كامنة وربما لا شعورية في هذا النوع من الممارسات. هناك أيضًا ألعاب الفيديو بالطبع، لأنها تتجاوز مجرد مشاهدة العنف إلى الدعوة لممارسته والانخراط به ولو بشكل تخيلي، وتعطي الطفل شعوراً زائفاً بالبطولة ووهما بأن ممارسة العنف شيء صحيح وطبيعي. أحد الحلول المفيدة لهذه المشكلة يتمثل في مراقبة البالغين للمحتوى المقدم للأطفال، مع اختيار المحتوى الهادف والمناسب، ويوجد على مستوى الوطن العربي مجموعة من قنوات الأطفال المناسبة جداً، إضافة للبحث عن الألعاب المصممة خصصياً للأطفال.

هناك أيضاً العامل الأيديولوجي وهو من وجهة نظري أقوى من سابقه، بل ربما هو الأقوى إطلاقاً، فالذي يمارس العنف تحت تسويغ أيديولوجي يمارسه غالباً مع شعور بالطمأنينة على أنه الخيار السليم والصحيح، فلا مكان للاحتمالات الأخرى لديه ولا مجال للتفاهم، مما يفاقم المشكلة نفسها، ولا يوجد أسوأ من تصارع اثنتين من الأيديولوجيات التي يناقض إحداها الأخرى. والتاريخ خير شاهد على هذا النوع من العنف، فالأيديولوجيات الدينية مثلاً قد أسيء استخدامها مما جعلها تتسبب في دوامة كبيرة من العنف تحت شعار نشر الخير. يمكن القول بأن تعزيز القيم الإنسانية كالحرية واحترام المختلف والمساواة بين البشر وجعلها معيارًا لعمل الإيديولوجيا سوف يساهم في تخفيف العنف الصادر منها، مع اعترافي الشخصي بصعوبة تنفيذ هذا الحل عمليًا، إذ إنّ بعض الأيديولوجيات تناقض بعض هذه القيم أساسًا.

يضيف الكاتب العامل السياسي إلى القائمة، هناك صراعات لا نهاية لها بين التيارات والأحزاب السياسية حول العالم، ففي الدول الديموقراطية تتم معالجة تلك الخلافات بطرق خاصة تتميز بأنّها سلمية آمنة- في أغلب الأحوال على الأقل-، بيد أن هناك دولاً أخرى تتحارب الأحزاب السياسية فيها من أجل السلطة وفرض هيمنتها. هذه الصراعات التي مزقت مجتمعات بأسرها تكون مترافقة في كثير من الأحيان مع أيديولوجيا ما.

إنّ الشعوب المقهورة من قبل حكوماتها تمتلك القابلية لعمل ثورة عنيفة ضد حكوماتها، ثورة كالثورة الفرنسية في غاية العنف، وقد تحدث الكاتب عن هذه الفكرة مبينًا أنّ الشعوب غير مستعدة للبقاء في حالة الظلم إلى الأبد. بالطبع فإنّ تلك الحكومات لن تقف مكتوفة الأيدي بل سوف تدافع عن السلطة والحكم بشراسة مستخدمة كل أشكال العنف الممكنة، كالقتل والتعذيب وتدمير الممتلكات.

لعلنا تحدثنا مسبقاً عن علاقة الأيديولوجيا بالعنف، الكاتب يتهم الغرب بامتلاكه بل صناعته لصورة مشوهة عن العرب والمسلمين تقول بأنّهم أصحاب الإرهاب والعنف، وقد وضحت سابقاً أنّه قد حصل استغلال للأيديولوجيا الدينية لصناعة بيئة فكرية مناسبة لكل الممارسات العنيفة.

لكني أرى أن الغرب لا يصنع تلك الصورة بسوء نية، بل هو فقط يرسمها كما يوضح أصحابها، فهناك جماعات تلصق نفسها بالإسلام تستحل دماء المسلمين، بمعنى أن هناك مسلمين يمارسون العنف ضد مسلمين آخرين، فكيف نُريد من الغرب أن يصورنا بعد ذلك؟.

إنّ النصوص الدينية إذا ما تمّ تأويلها بشكل يخدم القيم الإنسانية الحديثة، يمكن له تقليص مساحة العنف المنسوب للإسلام، وهذا عمل ليس بالسهل، حيث إنّ بعض القيم الحديثة تعارض التصور التقليدي للإسلام، فالكافر ليس كالمسلم، أي أن هناك إنسانا أعلى منزلة من إنسان آخر ليس على الصعيد الغيبي والحساب الإلهي في الآخرة فقط، بل على الصعيد الدنيوي والممارسات اليومية، وهذا بحد ذاته قد أصبح في أحيان كثيرة مسوغاً للعنف ضد الآخر.

هكذا فإنّ العنف ليس بالشيء الممكن تجاهله، خاصة وأن عوامل إشعاله وتفعليه موجودة في كل مجتمع وأسرة تقريبًا، ثم إن مواجهة العنف بالعنف لن يحل شيئًا، كما أن إلغاء أسباب العنف تماماً غير ممكن على أرجح تقدير، لكن التحكم بتلك العوامل وتوجيهها يمكن أن يخفف من وطأته في هذا العالم.

deeko123@hotmail.com